الفصحى والعامية والاعتبارات القومية

بقلم يوسف الشاروني

١ ـ من الطريف ان كلا ممن ينتصرون للحوار الفصيح ومن يجيزون الحوار العامي يستخدمون احيانا الحجج نفسها لتأييد وجهة نظرهم . وفي مقدمة هذه الحجج اليوم علاقة اللغة المستخدمة بقضية الوحدة العربية .

فأنصار الفصحى يرون ان الاستعمار الذي جثم على الدول العربية زمنا طويلا كان همه القضاء على الفصحى لتمزيق شمل العرب ، وان تشجيع اللهجات المحلية ان هو الا تشجيع للحركات الانفصالية ، وان العربية الفصحى احدى مقومات القومية العربية واذا تسامحنا في اباحة الحوار بالعامية ، فقد يمتد هذا التسامح الى السرد نفسه . فالعامية ليست الا تركة مما ورثناه من عهود الاستعمار والانحطاط والتمزق . (١)

يقول الدكتور عمر فروخ :

« ان الدول المستعمرة في العصر الحديث استغلت نفرا من العرب في الاقطار العربية المختلفة ، وبوسائل مختلفة ، ليدعوا الى تدوين اللهجات العربية بالحرف العربي آنا وبالحرف اللاتيني آونة . ولقد استجاب هذا النفر الى تلك الاستمالة الاستعمارية عن طيب قلب او بدافع من مصلحة طمعا بمال في الاكثر او بدافع آخر لست الان في سبيل تحليل بواعثه وعوامله ، فشنوها حربا لا هوادة فيها على اللغة العربية تحت ستار تسهيل اللغة مرة ، والحفاظ على الاداب الشعبية مرة أخرى ، وتحت ستار التمشي مع التقدم في الحياة ، لان اللغة كائن حي يجب ان يتطور ويتقدم » (٢)

كما يقول الاستاذ نجيب محفوظ :

« اللغة العامية حركة رجعية ، والعربية حركة تقدمية ، فاللغة العامية انحصار وتضييق وانطواء على الذات لا يناسب العصر الحديث الذي ينزع للتوسع والتكتل والانتشار الانساني » (٣)

٢ ـ وفي الوقت نفسه يرى الفريق المعارض ان الاستعمار ما كان يشجع دراسة الفولكلور ـ ومن بينه لهجاتنا المحلية ـ لان التنبيه اليه ان هو الا تنبيه الى مقومات الشخصية الوطنية وما أولاه الاستعمار من عناية بهذا الجانب كان من اهدافه الاساسية فهم عقليتنا حتى يعرف كيف يستعمرنا . ولهذا فان الاهتمام بأدبنا الشعبي سار جنبا الى جنب مع حركات الاستقلال الاخيرة في العالم العربي . فالاستعمار لم يكن يهدم الفصحى لحساب العامية بل كان يهدم اللغتين لحساب لغته هو .

هذا الى ان ملاحمنا وسيرنا الشعبية التي رويت ودونت بغير الفصحى كانت من أهم الانواع الادبية التي عبرت عن الوحدة العربية ، حيث يتحرك البطل من بلد عربي الى آخر لا تقف أمامه حدود ، فهو في بلده ما دام نطق اهلها عربيا ، بل ان كثيرا منها عبر عن وحدة النضال الشعبي ضد الغزو الاجنبي ، كما نجد في سيرة الظاهر بيبرس على سبيل المثال .

يقول الدكتور مندور :

« ولما كان التراث الفصيح القديم لم يعرف فن المسرحية الذي يعرض قطاعات من الحياة يتنفس فيها الشعب ويسخر من محنه وآلامه او يجسد مآسيه ، فقد رأينا أدباء الشعب المعروفين والمجهولين يكتبون للفنون الشعبية القريبة الشبه بفن المسرح مثل « الاراجوز » و « خيال الظل » الذي كانت المسرحيات التي تؤلف له تسمى « بالبابات » وقد وصلتنا فعلا عدة بابات من بابات خيال الظل التي كتبها في عصر الظاهر بيبرس الكاتب الشعبي محمد بن دانيال ، وهي مكتوبة طبعا باللغة العامية . ومعنى ذلك ان الشعب قد كتب أدبه الخاص بلغة حياته وهي العامية دون ان يفقده ذلك احساسه بقوميته العربية او تمسكه بدينه الاسلامي او معرفته بلغة القرآن » (٤)

٣ ـ هذا وتداول اللهجات العربية المختلفة من شأنه زيادة الاحتكاك بينها مما يؤدي الى زيادة التفاهم الشخصي بين المتحدثين بهذه اللغات وتقاربهم ، والى تطعيم اللغة بما يكفل لها التجدد .

ويعبر عن هذا الرأي اديب عراقي من كربلاء هو الاستاذ عبدالله الخطيب اذ يقول :

« وأحسن مثل لذلك فهم اللغة العامية المصرية في البلاد العربية التي انتشرت فيها الثقافة الشعبية المصرية . ونحن نعلم أن اللغة العامية المصرية انتصرت في عدة مجالات حيوية ومهمة ، انتصرت في المسرح والسينما بشكل واسع وكذلك في الغناء .. والان تسجل انتصارا آخر في الخطب السياسية المهمة ، وبعد ان انتشرت الافلام المصرية في العراق وانتشرت الاغاني ، رأينا بعد مدة قصيرة ان افراد مختلف الطبقات في العراق تفهم الفيلم المصري بصورة جيدة ، وتفهم النكتة المصرية بالرغم من تفاوت اللهجة المصرية عن اللهجة العراقية . ولو كان للعراق افلام سينمائية تعرض في مصر وغناء عراقي يسمعه المصريون ويحفظونه كما في العراق لكان العكس صحيحا كذلك ، ولو كان التبادل في مثل هذه المجالات الشعبية موجودا في البلاد العربية بصورة واسعة لتغلبنا على هذه الصعوبة ، وانا أعتقد ان الجدار الذي يفصل بين اللغات العامية المختلفة جزئيا في البلاد العربية لا بد ان ينهدم عن قريب ، واعتقد كذلك ان عدم الوقوف امام انتشار اللغة العامية المنقحة في المجال الذي أقصده (وهو الحوار القصصي) يحقق غايتينساميتين اولاهما تدعيم تكامل الفن القصصي ، وثانيهما تقارب اللهجات العامية في البلاد العربية والتغلب على عدم فهم لهجة بلد شقيق في جميع اجزاء الوطن العربي الكبير ، وهذا يمكن للشعوب العربية التفاهم بصورة واسعة » (٥)

٤ ـ وليس صحيحا ان العامية لم تظهر الا في عهود الانحلال والسيطرة الاجنبية ، فالاعراب لم يكن مظهر سليقة لعامة العرب ، والدليل على ذلك تلك الروايات الكثيرة التي تحدثنا عن وقوع اللحن من العرب قبل الاسلام (٦)

بل يذهب محمود تيمور الى أن

« هذه العامية أقدم من الفصحى عهدا ، وأعرف منها الى العروبة نسبا ، وفي مقدورنا لو اتيحت لنا كتابة العامية ان نقول بأننا نكتب العربية ولا مراء » (٧)

٥ ــ ومحمود تيمور يتفق بذلك مع الرأي القائل بأن اللهجات العامية ليست نتيجة فساد طرأ على الفصحى بل هي تطور للهجات عربية أخرى ، وبذلك لا يكون اختلاف النطق قبل الاسلام لحنا أي ليس خروجا على لغة رسمية معترف بها ، بل هو دليل على اختلاف اللهجات . وقد اختلف المحدثون حول هذا الاختلاف ونوعه وان لم يختلف الرأي حول وجود لهجات عربية متعددة قبل الاسلام .

أما **الرأي الاول** فيؤكد تعدد اللهجات قبل الاسلام ، وممن يعبرون عن هذا الرأي جورجي زيدان في كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » الذي ذهب فيه الى ان اللغة العربية التي نحن بصددها هي لغة الحجاز التي وصلت الينا ، وكانت قبل الاسلام لغات عديدة تعرف بلغات القبائل وبينها اختلاف في اللفظ والتركيب (٨) . كما ردد الرأي نفسه في كتابه « تاريخ اللغة العربية » ثم افرد فيه فصلا بعنوان « ما دخل اللغة العربية من الالفاظ الاعجمية في العصر الجاهلي » ويقول اننا :

« اذا رأينا لفظا في العربية لم نر له شبيها في العبرانية او الكلدانية او الحبشية (التي تنتمي مع اللغة العربية الى أصل واحد) ترجح عندنا انه دخيل فيها ، واكثر ما يكون ذلك اسماء العقاقير او الادوات او المصنوعات او المعادن او نحوها مما يحمل الى بلاد العرب من بلاد الفرس او الروم او الهند او غيرها ، ولم يكن للعرب معرفة به من قبل ، أو أسماء بعض الاصطلاحات الدينية او الادبية ، واكثر ذلك منقول عن العبرية او الحبشية لان اليهود والاحباش من أهل الكتاب . ويقال بالاجمال ان العرب اقتبسوا من لغة الفرس اكثر مما اقتبسوا من سواها ، ولذلك رأينا أئمة اللغة اذا اشكل عليهم اصل بعض الالفاظ الاعجمية عدوها فارسية (٩) .

ثم يخصص فصلا عنوانه « ما لحق اللغة العربية من التغيير في الفاظها في العصر الجاهلي » ومعنى هذا انه حتى اللهجة العربية التي قدر لها ان تصبح اللغة الفصحى فيما بعد كانت تتفاعل مع غيرها من اللغات بحكم قوانين الطبيعة والمجتمع .

كما نشر المستشرق مرجوليوث في مجلة الجمعية الملكية الاسيوية ــ عدد يوليو سنة ١٩٢٥ ــ بحثا عنوانه « اصول الشعر العربي » رجع فيه ان هذا الشعر الذي نقرأه على أنه شعر جاهلي انما نظم في العصور الاسلامية ثم نحله هؤلاء الواضعون المزيفون لشعراء جاهليين . وقد بنى رأيه هذا على ضربين رئيسيين من الادلة : أدلة خارجية وأدلة داخلية . ومن الادلة الداخلية الاختلاف بين لهجات القبائل المتعددة ، والاختلاف بين لغة القبائل الشمالية جملة واللغة الجنوبية . وهذا الاختلاف بنوعيه واضح فيما اكتشف من نقوش في شمالي الجزيرة العربية وجنوبيها ، وليس لدينا حتى الان ما يجعلنا نفترض ان لغة القرآن كانت لغة أدبية في أي مكان قبل نزوله (١٠)

ثم سلك الدكتور طه حسين سبيل مرجوليوث في كتابه « في الادب الجاهلي » فأعرب عن شكه في ان تكون اللغة العربية قد انتشرت في الجزيرة العربية على هذا النطاق الواسع قبل الاسلام ، ولهذا فالكثرة المطلقة لما تسميه أدبا جاهليا ــ بما فيه المعلقات ــ ليست من الجاهلية في شيء ، وانما هي منتحلة بعد ظهور الاسلام (١١) . ثم يعرض لما يقال عن احتمال اتخاذ اهل الجنوب اللغة العدنانية لغة أدبية ، فينفيه لان السيادة السياسية والاقتصادية ــ التي من شأنها ان تفرض اللغة على الشعوب ــ قد كانت للقحطانيين دون العدنانيين (١٢) . والقرآن الذي تلي بلغة واحدة ولهجة واحدة هي لغة قريش لم يكد يتناوله القراء من القبائل المختلفة حتى كثرت قراءاته وتعددت اللهجات فيه وتباينت كثيرا ، جد القراء والعلماء المتأخرون في ضبطه وتحقيقه واقاموا له علما او علوما خاصة (١٣) .

ويذكرنا هذا الرأي بكلام ابن الجوزي (٥١٠ ــ ٥٩٧ هـ) في الجزء الاول من كتابه النشر في القراءات العشر حيث يقول :

« كانت العرب الذين نزل القرآن بلغتهم ، لغاتهم مختلفة ، والسنتهم شتى ، يعسر على احدهم الانتقال من لغته الى غيرها ، أو من حرف الى آخر ، بل قد يكون بعضهم لا يقدر على ذلك ولو بالتعليم والعلاج ، لاسيما الشيخ والمرأة ومن لم يقرأ كتابا ، كما اشار اليه صلى الله عليه وسلم حيث أتاه جبريل فقال له ، ان الله يأمرك ان تقرىء امتك القرآن على حرف ، فقال صلعم : أسأل الله معافاته ومعونته ، ان امتي لا تطيق ذلك ، ولم يزل يردد المسألة حتى بلغ سبعة أحرف ، فلو كلفوا العدول عن لغتهم ، والانتقال عن السنتهم لكان من التكليف ما لا يستطاع » .

كذلك ذكر ابن خلدون (٧٣٢ ــ ٨٠٨ هـ) في مقدمته ان لغة حمير لغة اخرى مغايرة للغة مصر في الكثير من اوضاعها وتصاريفها وحركات اعرابها ، وطالب على هذا

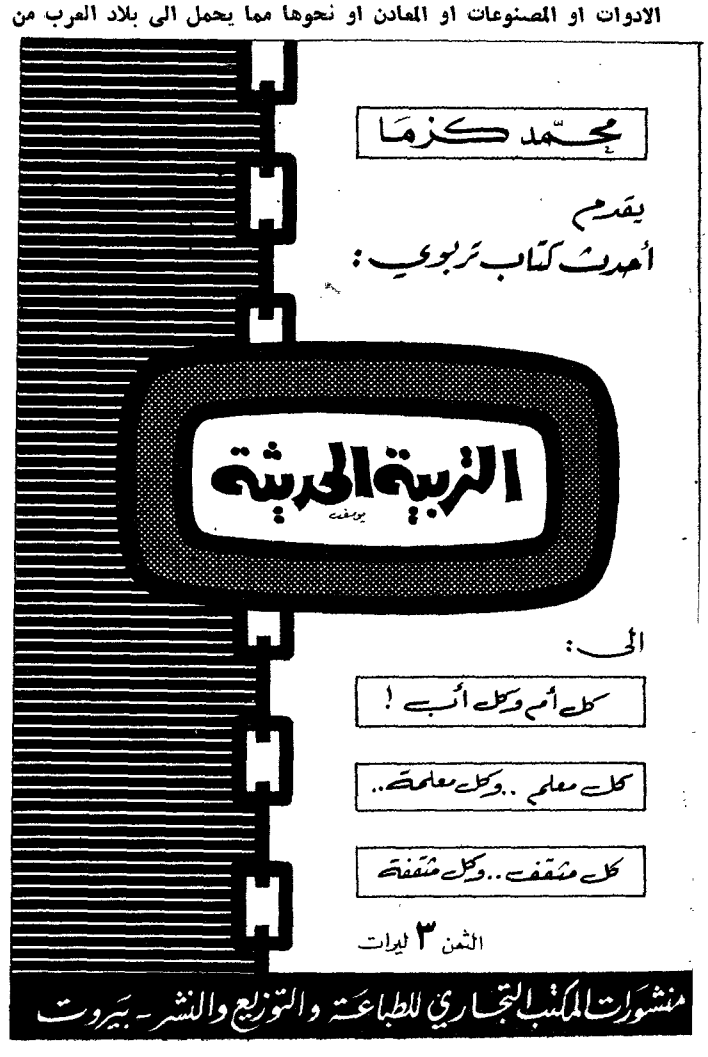

الاساس بالاستعاضة عن حركات الاعراب ـ التي كانت قد سقطت في لغة الحديث في عصره ـ بامور اخرى على غير المنهاج الاول في لغة مضر (١٤) .

واعترف لغوي مثل ابن جني (٣١٠ ـ ٣٩٢ هـ. ٩٤١ ـ ١٠٠١) بفساد لسان البادية في عهده (١٥) ، كما اعترف باختلاف اللغات في الجاهلية (١٦) ، ثم يقول انه يجب ان يتخير الانسان أقوى اللهجات واكثرها استخداما، لكنه يستطرد قائلا : الا أن انسانا لو استعملها لم يكن مخطئا لكلام العرب ، لكنه يكون مخطئا لاجود اللغتين . فاما ان احتاج الى ذلك في شعر او سجع فانه مقبول منه، غير منعي عليه (١٧) .

ومعنى هذا ان اصحاب هذا الرأي ـ من القدماء قبل المحدثين ـ يقدمون بناء على نظريتهم حلولا لمشاكل الاعراب او لبعض الاخطاء اللغوية .

اما **الرأي الثاني** فيعترف بتعدد اللهجات قبل الاسلام ، لكنه يرى أن لغة قريش كانت قد اصبحت قبل الاسلام لغة ادبية مشتركة الى جانب هذه اللهجات المتعددة ، ومن اصحاب هذا الرأي محمد الخضر حسين في كتابه « نقض كتاب الشعر الجاهلي » (١٨) ، وكذلك الأستاذ محمد لطفي جمعه في كتابه الشهاب الراصد (١٩) ويرون بناء على ذلك ان الشعر الجاهلي صحيح في جملته .

كما عبر عن هذا الرأي الدكتور علي عبد الواحد وافي اكثر من مرة في كتابه « فقه اللغة » فهو يقول :

« وكما تغلبت العربية على اللغات اليمنية القديمة في ميادين التخاطب ، تغلبت عليها في ميادين الاداب والكتابة ، فاستأثرت بالشعر والنثر الادبي والخطابة والرسائل والتدوين وهلم جرا . غير انه لم ينل اللغة العربية بهذه البلاد في ميادين الاداب والكتابة ما نالها من تحريف في ميادين المحادثة ، بل ظلت خالصة فصيحة لا تكاد تختلف في شيء عن عربية أهل الشمال (٢٠) ... فأصبح العربي ، ايا كانت قبيلته ، يؤلف شعره وخطابته ونثره الادبي بلهجة قريش فلا غرابة اذن في ان القرآن ، وقد جاء بلغة قريش (٢١) ، كان مفهوما لدى جميع القبائل ، وكان يؤثر في العرب جميعا ببيانه وبلاغته ، فقد نزل بعد ان تم للهجة قريش التغلب على اللهجات العربية الاخرى ، وبعد ان اصبحت لغة الاداب لسائر قبائل العرب (٢٢) .

كذلك يرى الدكتور ابرهيم انيس ان تعدد لهجات العرب قبل الاسلام لا يمنع من توحد لغتها الادبية النموذجية ، وهي اللغة التي كان الشعراء ينظمون بها شعرهم ليتباروا في سوق مثل سوق عكاظ .

« والا كيف كان من الممكن ان يفضل شاعر على شاعر في تلك المناظرات اذا كان المقياس مختلفا ، واداة القول متباينة » (٢٣) .

ويشبههم بعض الاعيان في الريف المصري حين يفدون الى القاهرة فيتحدثون بلغة القاهرة، فاذا عمدوا الى مقرهم الاصلي خاطبوا الناس بلهجاتهم . كذلك كانت الحال بين الخاصة من رؤساء القبائل ، يرونه عيبا ان يخطبوا في سوق كسوق عكاظ بتلك اللهجة الخاصة بهم، كما يرونه عيبا ان يتحدثوا الى قبائلهم بغير تلك اللهجات (٢٤) .

اما **الرأي الثالث** فيعترف ايضا بتعدد اللهجات في الجاهلية ، غير أنه يرى انها توحدت او تقاربت جدا قبيل الاسلام . وممن يعبرون عن هذا الرأي مصطفى صادق الرافعي في كتابه « تاريخ آداب العرب » حيث يرى ان تهذيب اللغة العربية مر بثلاثة أدوار قبل الاسلام كان آخرها من عمل قريش . كما يرى احمد امين في الجزء الاول من كتابه « فجر الاسلام » .

« ان العرب في الجاهلية كانوا يعيشون قبائل ، وهذه القبائل تختلف بيئتها كثرة وقلة في اللغة واللهجة ، فقد تستعمل قبيلة كلمة ولا تستعملها القبيلة الاخرى او تستعمل غيرها ... وهذه اللغات بدأ توحيدها قبل الاسلام واستمر هذا العمل في الاسلام » (٢٥) .

ومحمد عطيه الابراشي من انصار هذا الرأي اذ يقول في كتابه « الاداب السامية » :

« في القرن السادس الميلادي كان معظم السكان في شبه جزيرة العرب يتكلمون لغة واحدة في كل مكان ، تلك اللغة كانت أهم اللهجات العربية ، وهي المعروفة الان باللغة العربية القديمة ... وكان الشعراء لا يستعملون الا لغة واحدة هي اللغة العربية ... ويظن بعض العلماء ان لغة الشعر عند معظم العرب كانت لغة صناعية ، وان الشعراء في جميع الجهات العربية قد استعملوا في شعرهم لهجة قبائل معينة في انشاد قصائدهم ... ولكننا حينما ننظر الى الشعر العربي الجاهلي نرى انه ليس هناك أثر لوجود فرق كبير من الوجهة اللغوية ، فمن التناقض ان ندعي ان كل هؤلاء العرب الغير على شرف قبائلهم الذين لا يعرف معظمهم القراءة والكتابة ـ قد استطاعوا ان يكلفوا انفسهم التعبير عن افكارهم وشعورهم بلغة اجنبية او صناعية . وقد اتفق علماء اللغة العربية

ـ التتمة على الصفحة ٧١ ـ

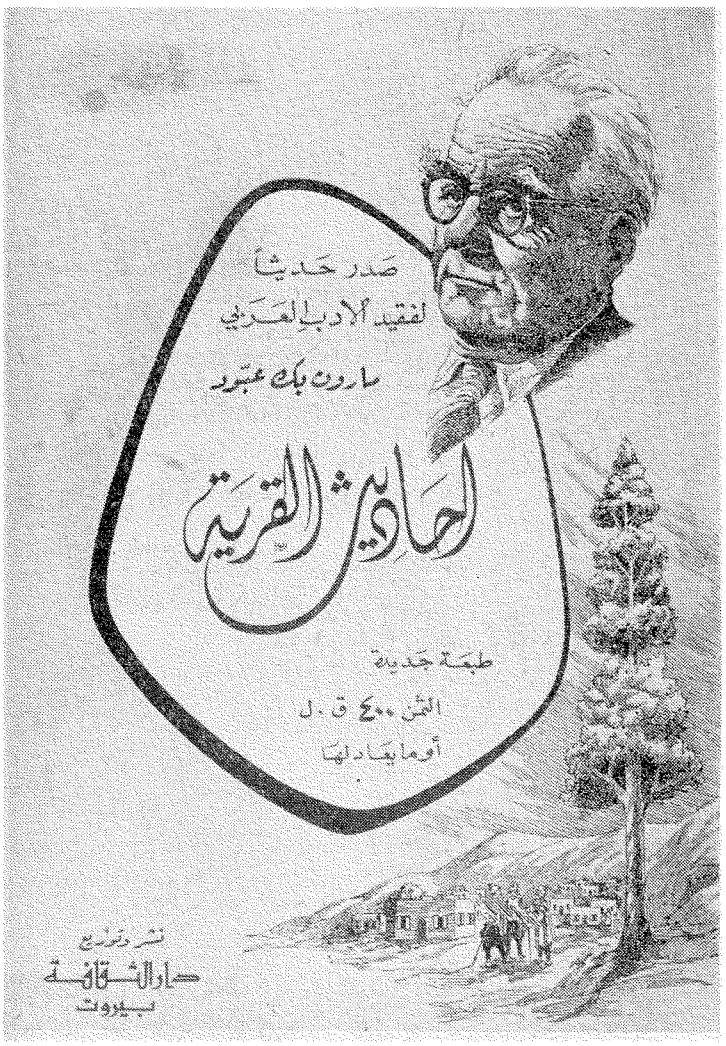

الفصحى والعامية والاعتبارات القومية

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٩ ـ

بالاجماع على ان لغة الشعر في الجاهلية كانت اللغة السائدة في شبه الجزيرة العربية ـ ويمكننا ان نقول : ان القبائل التي عرفت بالنبوغ في الشعر العربي يبدو انها كانت متجاورة في الاقليم وفي العصر ، ثم تفرق الشعراء بعد ذلك الى طوائف كثيرة في بلاد واسعة الارجاء ... ومن الخطأ بين الاوروبيين القول بأن اللغة العربية هي لهجة قريش فحسب » ٢٦

اما الدكتور عمر فروخ فيرجح

« ان اللغة العربية الفصحى ، لغة المعلقات كانت قد بدأت تتقهقر قبل قرن او قرنين من ظهور الاسلام ، ثم اتسع تقهقرها وكان مقدرا لها ما قدر لسائر اللغات القديمة كالسنسكريتية والاغريقية واللاتينية والجرمانية ، لولا ان جاء الاسلام ونزل القرآن ، فثبتت عند الحد الذي كانت قد بلغت اليه في تقهقرها . بل ان اثر القرآن لم يكن قاصرا على تقهقر العربية الفصحى فحسب ، بل كان عاملا على رقيها بردها الى ما كانت عليه من الصفاء والمتانة قبل ان يبدأ تقهقرها » (٢٧) .

٦ ـ اما بعد الاسلام فان التوسع الذي حققته الحضارة العربية ـ وليس عهود الانحلال ـ هو الذي أدى الى عدة تطورات لغوية ، أهمها ازدياد اللحن وانتشاره بين الناطقين بالعربية نتيجة لاختلاطهم بالشعوب الاخرى ، مما أدى الى وضع قواعد الصرف والنحو لحفظ اللغة الفصحى.

يقول ابن خلدون :

« وانما وقعت العناية بلسان مضر لما فسد بمخالطتهم الاعاجم حين استولوا على ممالك العراق والشام ومصر والمغرب وصارت ملكته على غير الصورة التي كانت اولا فانقلب لغة أخرى » (٢٨) .

كذلك رحبت اللغة العربية بدخول كثير من الالفاظ الاجنبية للدلالة على المظاهر الحضارية التي سبق ان عرفتها الشعوب الاخرى كالفرس والرومان ، وكان ذلك قد حدث من قبل في الجاهلية ، لكنه تم هذه المرة على نطاق اوسع وأعنف . وقد صاغ العرب بعض هذه الالفاظ على اساليبهم كما ابقوا الفاظا اخرى بحالها (٢٩) . فقد أجيز التعريب على غير أوزان العرب . (٣٠)

وهكذا وجدت العامية منذ القرن الاول الهجري كظاهرة طبيعية . ويلخص لنا يوهان فك هذه العامية بأنها كانت لغة للتفاهم بأبسط وسائل التعبير اللغوي :

« فبسطت المحصول الصوتي ، وصوغ القوالب اللغوية ، ونظام تركيب الجملة ، ومحيط المفردات ، وتنازلت عن التصرف الاعرابي ، واستغنت بذلك عن مراعاة اصول الكلمة وتصريفها ، كما ضحت بالفرق بين الاجناس النحوية ، واكتفت ببعض القواعد القليلة الثابتة في مواقع الكلام ، للتعبير عن علاقات التركيب (٣١) .

وقد أجيز اللحن في الحديث ، وفي هذا يقول الاستاذ عبد القادر المغربي :

« ان الجاحظ وابن قتيبه وغيرهما استحسنوه ، وافتوا بجوازه ، بل نصح بعضهم بأن يستعمل الكلام الملحون في مخاطبة المرء غيره ، وفي تحديثه جلساءه لا في ما عدا ذلك » (٣٢) .

وهكذا نجد أنه في نهاية القرن الثاني الهجري كان الجاحظ قد أولى اهتماما باللهجات واللغات الخاصة ، والسنة الحرف والمهن . فيوضح في كتابه « البيان والتبيين » أن كل مصر يتكلم على لغة من نزل من العرب . ويذكر أمثلة لفرق ما بين مكة والبصرة في الاستعمال اللغوي . وفي كتابه « البخلاء » يسوق وصفا حيا للدوائر الادبية في البصرة حوالى سنة ٢٠٠ هـ. كما يعرض صورة غاية « في الدقة » من الوجهة اللغوية لاسلوب المحادثة بالبصرة في ذلك العهد (٣٣) .

حتى اذا جاء القرن الرابع الهجري كانت اللهجات الاقليمية في العراق وما بين النهرين وسورية وفلسطين ومصر وشمال افريقية واسبانيا ، قد نضجت على لغة المثقفين واكسبتها في كل اقليم لونا محليا ذا طابع خاص ، بحيث اقدم المقدسي في كتاب رحلته « احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم » المكتوب عام ٣٤٥ هـ. ، وفي وصفه للعالم الاسلامي اذ ذاك على محاولة تمييز كل اقليم من الوجهة اللغوية ، بذكر التعبيرات المحلية الخاصة به . (٣٤) .

وبهذا صارت للعربية لغة فصحى على المرء ان يتعلمها، والدليل على ذلك ان المقدسي يقول : ان اسمى درجات العربية كانت في فارس ، أي في أرض غير عربية اللغة لان الناس هناك كانوا يبذلون اجتهادا عظيما في دراستها. وبذلك صارت الفصاحة وسلامة اللغة امرا محصورا في الثقافة المكتسبة (٣٥) .

٧ ـ انما التدهور وقع للغة العربية الفصحى نفسها كأداة الكتابة والادب ، وكان هذا التدهور في اتجاهين، كان أولهما على صورة اهتمام مبالغ فيه باللغة نفسها وبالاسلوب على حساب المضمون كترصيعه بالمحسنات اللفظية ـ وهو اتجاه لا علاقة له بالعامية ـ وكان قد اشتد عوده في الواقع عندما وصلت الحضارة العربية الى قمة الترف وآذنت ببداية انحلالها في نهاية الدولة العباسية . والنثر المسجوع لم يكن من النادر استخدامه قبل الاسلام، لكن منذ القرن الرابع الهجري أخذت « تظهر الخطوات الاولى لذلك التطور الذي جعل النثر المسجوع يتحول الى تلاعب لا طائل تحته بالالفاظ الجوفاء » (٣٧) .

وبهذا صار التعبير اللاشعوري الذي كان يوحي به التأثير النفسي العميق تعبيرا ارادياً محضا (٣٨) .

وأصبح الاسلوب كما يقول توفيق الحكيم ، يستخدم اللغة استخدام الجواري للعود في مجالس الانس والسكر بقصور هارون الرشيد (٣٩) .

أما الاتجاه الاخر فقد جاء متأخرا عن الاتجاه الاول على صورة ركاكة في الاسلوب لكثرة تجاهله قواعد الصرف والنحو مما جعله قريبا من العامية ، وذلك على نحو ما نرى في تاريخ ابن اياس مثلا ، وفي اسلوب مثل اسلوب الجبرتي الذي ما بقيت مؤلفاته الا لقيمتها التاريخية .

يقول توفيق الحكيم :

« ان لغة الجبرتي في ذاتها ، وقد كان من خيرة علماء الازهر وقتئذ ، لانصع دليل على ان اللغة العربية نفسها قد سقطت فيما سقطت تحت سنابك جياد اولئك البرابرة « المغول » (٤٠) .

ولا تعارض بين هذين الاتجاهين فهما نتاج بيئة واحدة . فالدكتور عبد اللطيف حمزة يصف اسلوب الجبرتي بأنه :

« لم يكن جاريا على نمط واحد ، فهو مرة بليغ غير مسجوع واخرى مسجوع ، وفي ثالثة يبدو قريبا من العامية » (٤١) .

كما يصف اسلوب الف ليلة وليلة بأنه :

« أدنى الى العامية والى كثرة الحشو وكثرة التضمين ، والى التصريح دون التلميح . وذلك كله فضلا عن جريه مجرى السجع على طريقة ابن العميد والقاضي الفاضل ».

لكنه يعود فيقول :

« ان خير ما يمتاز به أسلوب الليالي هو الوضوح والجرأة والصدق

والصراحة وشدة الاسر » (٤٢) .

وهذا هو الذي أعطى الكتاب ـ الى جانب مضمونه ـ شهرته العالمية .

وقد تدهورت العامية كما تدهورت الفصحى ، منذ أن أصبح عوام الاتراك هم أصحاب الكلمة في قصر الخليفة ببغداد في نهاية الدولة العباسية (٤٣) . وكان المعتصم قد بدأ هذا التقليد حين اشترى كثيرا من هؤلاء الاتراك وألف منهم قواته المحاربة . ذلك انه في عصور الانحطاط كما تتدهور الفصحى تتدهور العامية ، فتقل مفرداتها ، وتقصر عن التعبير عن حاجاتها ، ويقف تغيرها وتطورها الدائبان، وقد يصل الامر الى انكماشها واضمحلالها ـ كما حدث كثيرا في التاريخ ـ وتصبح السيطرة نهائيا للغة الفاتحين.

لهذا لم تنج اللغة العربية من هذا المصير الا بفضل ما أبدته من مقاومة سواء عن طريق تراثها الفصيح او عن طريق تراثها الشعبي حين انزوت الفصحى ـ عدة قرون ـ من ميدان الادب المعبر عن وجدان الشعب ، فتولت عنها لهجاتها تلك المهمة كأنها جيوب للمقاومة او مراكز اخرى للدفاع (٤٤) .

يقول الدكتور عبد اللطيف حمزه في كتابه « الادب المصري » :

« من الاداب الشعبية التي عرفتها الديار المصرية ـ فيما خلا الف ليلة وليلة ـ ادب السير ، مثل سيرة عنترة وسيف بن ذي يزن والزير سالم وسيرة بني هلال وسيرة الظاهر بيبرس وغيرها.

وقد تسلمت مصر هذه السير جميعها بعد العصر الفاطمي او بعبارة اخرى بعد ان اصبح السلطان الفعلي في يد غير العرب . أفلا يدل ذلك اذن على ان مصر بعد انتم اسلامها وتم استعرابها ارادت ان تقف امام الدول غير العربية موقف المؤمن بشخصيته ، الشاعر بذاتيته ، الحريص على التعبير عن ذلك كله ؟

ثم ما يلبث أن يجيب بقوله :

« بلى ـ وجدت مصر في جميع السير التي اشرنا اليها انتصارا للعروبة ، واستمساكا بها ، واخلاصا لها وللاسلام » (٤٥) .

القاهرة — **يوسف الشاروني**

المصادر والتعليقات :

١ ـ عبر عن هذا الرأي كثيرون من بينهم :
ابرهيم الابياري ورضوان ابراهيم في كتابيهما : أزمة التعبير الادبي بين الفصحى والعامية ـ دار الطباعة الحديثة ـ سنة ١٩٥٨ .
احمد بهاء الدين : مجلة اخر ساعة ـ ٩ مايو سنة ١٩٦٢.
عبد الرحمن البزاز : الفصحى عنوان وحدتنا ـ مجلة العربي بالكويت ـ العدد ٤٦ ـ سبتمبر سنة ١٩٦٢ ـ ص ١٩ .
يحيى حقي : كتب للجميع ـ العدد ١٥٠ ـ مارس سنة ١٩٦٠.

٢ ـ الدكتور عمر فروخ : القومية الفصحى ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ سنة ١٩٦١ ـ ص ٩٩ .
٣ ـ مجلة صباح الخير ـ القاهرة ـ العدد ٦ ـ ١٦ فبراير سنة ١٩٥٦ ـ ص ٥٠ .
٤ ـ الدكتور محمد مندور : المسرحية بين العامية والفصحى والشعر ـ مجلة الكاتب ـ القاهرة ـ العدد ٩ ـ ديسمبر سنة ١٩٦١ ـ ص٥٨.
٥ ـ عبد الله الخطيب : استعمال اللغة العامية في الحوار القصصي ـ الاديب ـ اكتوبر سنة ١٩٥٦ ـ ص ٦٦ .
٦ ـ الدكتور ابرهيم أنيس : مستقبل اللغة العربية المشتركة ـ ص ١٤ .
٧ ـ محمود تيمور ـ مشكلات اللغة العربية ـ ص ١٨٨ ـ ١٨٩ .
٨ ـ جرجي زيدان : تاريخ اداب اللغة العربية ـ مطبعة الهلال ـ القاهرة ـ سنة ١٩٣٦ ـ ط ٣ ـ ج ١ ـ ص ٣٥ .
٩ ـ جورجي زيدان : تاريخ اللغة العربية ـ مطبعة الهلال ـ القاهرة ـ سنة ١٩٠٤ ـ ص ٦ .
١٠ ـ D. S. Margoliouth : The origins of Arabic Poetry, Journal of The Royal Asiatic Society, July 1952, p. 447 - 449 .
١١ ـ طه حسين : في الادب الجاهلي ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ـ سنة ١٩٣٣ ـ ص ٦٣ .
١٢ ـ المرجع السابق ـ ص ٩٨
١٣ ـ المرجع السابق ـ ص ٩٤ .
١٤ ـ ابن خلدون ـ المقدمة ـ المكتبة التجارية ـ القاهرة ـ ص ٥٥٦ ـ ٥٥٧ .
١٥ ـ ابن جني ـ الخصائص ـ تحقيق محمد علي النجار ـ مطبعة دار الكتب المصرية ـ القاهرة ـ سنة١٩٥٥ ـ ج ١ .
١٦ ـ المرجع السابق ـ ص ٢
١٧ ـ المرجع السابق ـ ص ١٢
١٨ ـ محمد الخضر حسين : نقض كتاب في الشعر الجاهلي ـ ص ٩٢ ، ٩٤
١٩ ـ محمد لطفي جمعة : الشهاب الراصد ـ ص ١٥٤ .
٢٠ ـ علي عبد الواحد وافي ـ فقه اللغة ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ـ ط ٢ ـ سنة٤ ١٩٤ ـ ص ٦٢
٢١ ـ المرجع السابق ـ ص ٨٤
٢٢ ـ المرجع السابق ـ ص ٨٦
٢٣ ـ الدكتور ابرهيم انيس : في اللهجات العربية ـ مطبعة لجنة البيان العربي ـ القاهرة ط ٢ ـ سنة ١٩٥٢ ـ ص ٢٢
٢٤ ـ المرجع السابق ـ ص ٣٩
٢٥ ـ احمد امين : فجر الاسلام ـ لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ـ سنة ١٩٢٨ ـ ج ١ ص ٦٢
٢٦ ـ محمد عطية الابراشي : الاداب السامية ـ دار احياء الكتب العربية ـ القاهرة ـ سنة ١٩٤٦ ـ ص ١٠٨ ـ ١١٠
٢٧ ـ عمر فروخ : القومية الفصحى : ص ٨٢ ، ص ١٨٨ ـ ١٩٣ .

صدر حديثا : **تأليف خلدون ساطع الحصري**

ثورة ١٤ تموز وحقيقة الشيوعيين في العراق

طبعة موسعة : العهد القاسمي ، علاقة القومية الاشتراكية العربية بالشيوعية

دار الطليعة ـ بيروت ص.ب ١٨١٣

٢٨ ـ ابن خلدون : المقدمة : ص ٥٥٦ ، ٥٥٧ .

٢٩ ـ محمد كرد علي : عجائب اللهجات ـ مجلة مجمع اللغةالعربية ـ ج ٧ ـ ص ٥٣ ـ ص ١٢٨ ـ ١٣٣ .

٣٠ ـ محمد شوقي امين : جواز التعريب على غير اوزان العرب ـ مجلة مجمع اللغة العربية ـ ج ١١ ـ سنة ١٩٥٩ ـ ص ١١٩ ـ ٢٠٧

٣١ ـ يوهان فك : العربية ، دراسات في اللغة واللهجات والاساليب ـ ترجمة عبد الحليم النجار ـ مطبعة دار الكتاب العربي ـ القاهرة ـ سنة ١٩٥١ ـ ص ٩

٣٢ ـ عبد القادر المغربي ـ السليقية في الكلام ـ مجلة مجمع اللغة العربية ـ ج ٩ ـ سنة ١٩٥٧ ـ ص ٧٩

٣٣ ـ يوهان فك ـ العربية ـ ص ١١٦

٣٤ ـ يوهان فك ـ المرجع السابق ـ ص ١٦٥

٣٥ ـ يوهان فك ـ المرجع السابق ـ ص ١٦٩

٣٦ ـ يرى الدكتور ابراهيم انيس ان اللغة العربية لغة موسيقية ، وان سبب ذلك يرجع الى هذه الظاهرة الفريدة التي مرت بها اللغة العربية ، الا وهي وجود ادب عربي قبل الاسلام مع ندرة القراءة والكتابة مما جعل الادب ادب اذن لا ادب عين ، فاكتسبت الاذان المران والتمييز بين الفروق الصوتية الدقيقة ، واصبحت مرهفة تستريح الى الكلام لحسن وقعه أو ايقاعه ، وتأبى اخر لنبوه ، واصبح من المألوف التعبير عن المعنى القليل بالفاظ كثيرة . ولم يخرج عن هذه الموسيقية الا بعض المفكرين من الادباء امثال ابن المقفع وغيره في عصر المأمون ممن تأثروا بما ترجم عن الفرس واليونان والهنود . ثم عادت الكتابة بعد هؤلاء الى الموسيقية ممثلة في الاسجاع والازدواج ، وظلت سوقها رائجة الى عهد قريب من عصرنا الحديث .

« دلالة الالفاظ ـ ص ١٩١ ـ ٢٠٠ ـ ومستقبل اللغة العربية المشتركة ص ٥٩ » .

ويتنبأ الدكتور ابراهيم انيس ان لغة الكتابة ـ بوجه عام ـ ستفقد اهميتها في التسجيل والتدوين ، وسيحل محلها التسجيل الصوتي حين تصبح ادواته في متناول الناس جميعا . « فالمستقبل للسمع لا للعين .. ولا نشك ان السمع حينئذ سيصبح اكثر حساسية ، يميز دقائق الاصوات ومتباين النغمات ، مما سيؤدي حتما الى ان يصير الكلام اقرب الى الموسيقى . وهنا يمكن ان يقال ان الثقافة اللغوية قد عادت كلها الى الوسيلة الطبيعية وهي حاسة السمع ، لا تستعين الا بها ، ولا تحتاج الى ما اصطنعه الانسان من وسائل ناقصة كالكتاب والقلم » (دلالة الالفاظ مكتبة الانجلو سنة ١٩٥٨ ص ١٨٩ ـ ١٩٠) وبذلك تعود للغة العربية موسيقيتها الاولى .

وهذه اراء تحتاج الى مناقشة يضيق عنها المجال هنا.

٣٧ ـ يوهان فك : العربية ـ ص ١٤٦

٣٨ ـ يوهان فك : المرجع السابق ـ ص ١٥٢

٣٩ ـ توفيق الحكيم : زهرة العمر ـ كتاب الهلال ـ العدد ٤٧ ـ ص ١٣٣

٤٠ ـ المرجع السابق ـ ص ١٦٨

٤١ ـ عبد اللطيف حمزه : الادب المصري من قيام الدولة الايوبية الى مجيء الحملة الفرنسية ـ مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ـ ص٢٥١

٤٢ ـ المرجع السابق ـ ص ٢٦٢

٤٣ ـ يوهان فك : العربية ـ ص ١٣٧ .

٤٤ ـ يحدد فاروق خورشيد ومحمود ذهني لغة السير الشعبية ـ وهي من أهم ما بقي لنا من اداب تلك الفترة ـ بأنها : تكاد تقرب الى لغة التخاطب عند أهل المدينة التي يمتزج فيها الاصل العربي بروافد شعبية من مختلف الشعوب المسلمة مع عاميات محلية تكونت بحكم المزج والاستعمال والاختلاط والتزاوج اللغوي . « فن كتابة السيرة الشعبية : دار الثقافة العربية ـ القاهرة ـ سنة ١٩٦١ ـ ص ٣٠٠ ».

٤٥ ـ عبد اللطيف حمزة : الادب المصري ـ ص ٢٦٤ .

صدر عن :

مكتبة المعارف في بيروت

شارع المعرض ص.ب ١٧٦١

* * *

ق.ل	
٢٥٠	**طه حسين ، والشيخان** بقلم محمد عمر توفيق
١٢٠٠	**قصة الادب في الاندلس جزآن** بقلم محمد عبد المنعم خفاجه
٣٥٠	**مختارات سلامة موسى** بقلم سلامة موسى
١٥٠	**ما هي النهضة ؟** بقلم سلامة موسى
٥٠٠	**عالم شتاينبك الرحيب** ترجمة عبد اللطيف شراره
٢٠٠	**التخطيط الاقتصادي** ترجمة الدكتور عبد الرحمن ياغي
٦٠٠	**عقدة اوديب** ترجمة جميل سعيد
٢٠٠	**دراسات في النقد** ترجمة الدكتور عبد الرحمن ياغي
٥٠٠	**كيف تساعد ابناءك في المدرسة** ترجمة سميرة عزام
١٥٠	**النفط الملتهب ((قصائد من العراق))** بقلم عدنان الراوي
٢٥٠	**شموع المعبد ((شعر وجداني))** بقلم فوزي عطوى
٢٠٠	**دفتر الحب ((شعر منثور))** بقلم هند سلامه
٢٥٠	**رنيم** بقلم نبيه صقر
٤٥٠	**ألوان من الحب** بقلم انيس منصور
٨٠٠	**شيء في صدري** بقلم احسان عبد القدوس
٥٠٠	**في بيتنا رجل** بقلم احسان عبد القدوس
٥٠٠	**الشقيقتان ((درب الآلام))** بقلم تولستوي
٣٠٠	**فن الحب والحياة** بقلم سلامة موسى
٢٥٠	**ظمآنة في واحة** بقلم اندريه طربيه
٢٥٠	**ذات صيف** بقلم ميشال موسى